الوحي الالهي

نظر في امكانه وضرورته

للاب شرل ابيلا اليسوعي (تابع)

٣ في الاسرار وامكان الوحي بها

السرّ لغةً ما يُكتَمُ في النفس من الحديث (تاج العروس) وتقابلهُ في اليونانيّة اللفظة μυστήριον وفي اللاتينيّة (mysterium) ومعناها في الاصل الامر المُبهم او الخفيّ او المجهول

وقد وردت هذه اللفظة في اسفار العهدين (١ بمعنى الشيء المكتوم عموماً وخصوصاً بمعنى الحقائق الخلاصية المطويّة في علم الله قبل ان يبوح بها الينا على السنة انبيائه ولاسيّما ابنه الوحيد سيدنا يسوع المسيح

وفي عرف اللاهوتيين قد يأتي السرّ دالًا على كلّ من الطقوس المقدسة التي انشأها السيد المسيح لإحداث النعمة التي تُشير اليها وهي المعمودية والميرون الخ . . . الّا انهُ غالبًا ما يُعنى بالسرّ في اصطلاحهم الحقيقة التي تفوق ادراك العقل المجرّد

وقد يفوق الشيء ادراك العقل إمّا من حيث دخيلة ماهيّته واما من حيث وجوده واما من كلا الوجهين فيكون السرّ على ثلاثة انواع :

١ السرّ الطبيعي — وهو ما نتوثّق الى معرفة وجوده دون استيعاب مكنونات حقيقته من جميع اوجهها فلا سبيل انا الى استقصاء تعاليها ولا الى الإلمام باسباب التوفيق بين اصولها مع اننا بما فُطرنا عليهِ من الفهم نعرفها ملتئمةً متّحدةً في واقع الحال لأنّ وجودها لا يخفى علينا . ومن امثال ذلك المتعدّدة القضيّة التالية : « الحريّة غير المتناهية هي في الحقيقة عين الوجوب الغير المتناهي » . حكمتُ هذا الحكم وتثبّتُهُ اذ تأمّلتُ الحريّة والوجوب فالفيتُهما من الصفات الكاملة فلم أجد بدًّا من ان انسبهما الى الله بحر الكمال الذي لا حدّ لهُ وبما انّ ذاتهُ الصمدانيّة غاية في

---

١) دان (٢ : ٢٨)–مر (٤ : ١١) – رو (١٦ : ٢٥)–١ كور (١٣ : ٢ و١٥ : ٥١) الخ

الوحدة والبساطة ولا يدخلها تركيب البتّة وجب القولُ ان الصفات فيه تعالى لا يتميّز في الحقيقة بعضها عن بعض. فالحريّةُ فيه اذن هي عين الوجوب. أجزم بهذا ولا يخامرني ادنى ريب فيه مع اني مقرّ بعدم استطاعتي ان اكتشف وجه التوفيق بين الصفتين بل قد يخطر ببالي ما يحدثني بتنافرهما لولا علمي السابق بوجودهما ملتحمتين بل غير متميزتين في الذات الالهية . فانّ الحريّة تُشير الى فعل يمكن حدوثه او عدمه على حدّ سواء. والوجوب بالعكس هو حالة ما لا بدّ من وجوده. نعم انّ هذا التناقض ليس الّا في الظاهر وقد حاولَ الفلاسفة حلّ عقدته على طرائق مختلفة منها ما قال بعضهم: انّ افعال الله هي واجبة ازليّة اذا اعتُبرت مستقرّةً فيه وممكنةٌ حادثةٌ في الزمن اذا اعتُبرتْ صادرةً عنهُ منتهيةً الى مفاعيلها الخارجيّة . لكنّ هذا الجواب وانْ مرجّحاً لا يشفي الغليل ولا ينبجس منهُ تمام النور ومهما اجهدَ الحكيم فكره فلا يرى الوجه الصريح الاكيد للتوفيق بين الحريّة والوجوب في الله الّا من الباب الخارجيّ الذي طرقناه بعد ايمّة الفلاسفة وهو استنتاج اتّفاق هاتين الصفتين من وجوب وجودهما في العليّ الكامل. واما الباب الداخليّ الذي يحجب عنّا الرابطة الجوهريّة الواصلة بين الصفتين المذكورتين فلا سبيل لنا اليه. ذلك لأنّ عقلنا البشري مخلوقٌ ضئيل محدود فلا يقوى على استيعاب الكمال الذي لا حدّ له من جميع اوجهه فتظلُّ منهُ حيثيّاتٌ كثيرة لا تبلغها معرفتنا فقد غربت عنّا في الصفتين اللتين نحن في صددهما تلك الحيثية التي تنشأ عنها رابطة الوجوب بالحريّة فندري بها اذ دلّتنا عليها الوجود الّا اننا لا نبصرها بذاتها

على انّ معرفة السرّ الطبيعي لا تستوجبُ الوحي فانّا وان كنا نجهل تمام دخيلته الّا اننا نستطيع بقوانا الغريزية الوقوف على وجوده على ما مرّ بك

٢ السرّ اللاهوتي من الطبقة الثانية — وهو الامر الذي يقدر العقل الغريزي حتى قبل الوحي به ان يقف على امكانه ويوفق بين اصوله الّا انهُ لا يدري به موجوداً واقعيّاً ما لم يهبط عليه به علمٌ من الله. مثاله الافعال الاختياريّة المستقبلة سواء كانت الهيّة او بشريّة. فلا يعسُرُ علينا ان نتحقّق مثلاً امكان قتل زيد عمرًا بعد اربع سنوات. ولكن هل يقع ذلك حقيقةً ؟ هذا ما لا علم به الّا الله ولمن منَّ عليه بالنبوة. والى هذا النوع من الاسرار مرجع منشئاته تعالى الوضعيّة كتأسيسه الكنيسة المقدّسة

وايلانه ايّاها العصمة الى غير ذلك من الامور التي لمّا كانت منوطةً باختياره عزّ وجل تعذّر على الطبيعة المبرومة تبليغنا اياها وان احاطتنا علماً بامكانها. فلا بدّ ان يبتّ منشئها الالهي مشيئتَهُ في شأنها

٣ السرّ اللاهوتي من الطبقة الاولى — وهو ما جمع بين خواصّ النوعين السابق ذكرهما. فيفوق ادراكَ العقل الطبيعي وجودُهُ وداخليّاتُ ماهيتهِ معاً فلا هو يعرفه واقعاً بمعزلٍ عن الوحي ولا بعدَ الوحي لهُ طاقةٌ على استيعاب موحًى به باجمعهِ. مع اننا لا نرى بين اصول السرّ من هذا الضرب تنافرًا ولا تضادًّا أكيدًا الّا اننا لا نرى ايضاً الاسباب الداخليّة التي توفّق وتجمع بينها فلا نُوقن إمكانه الّا على سبيل الاستنتاج اعني مشهودًا عليهِ بنفس وجوده الذي اوحاه الله

وعلى هذه الشاكلة سرّ الثالوث الاقدس لهُ السجود. ويُعبّر عنهُ بالقضية التالية: « في الله اقانيم ثلاثة وهي تقوم بطبيعة واحدة. » فانّك تفهم في هذا التعبير معنى لفظتَي « اقنوم وطبيعة » ومهما جحف الملحدون يشهدُ ضميرك انّ البونَ شاسعٌ بين هذهِ القضيّة وهذيان الهاذر بقولهِ مثلاً « نَعْلَمْ بَعْلَمْ » بيد انّ كمالاتِ الله سامية اوفى واعلى من ان يحيط الذهن المخلوق بجميع جهاتها فمع ادراكك في سرّ الثالوث معنى المسنَد اليهِ (الاقانيم الثلاثة) والمسنَد (قائمة بطبيعة واحدة) لا يتجلّيان لك من كل اوجههما فلا تتحقّق اسناد الثاني الى الاوّل ولا تجزم بهِ عن سبب داخليّ ولكن لداعٍ خارجيّ فقط هو كلام الحقّ سبحانهُ وتعالى ولذلك تظلّ حتى بعد الوحي واذعانك لهُ بالايمان عاجزًا عن استطلاع وجهٍ داخليّ للتوفيق بين المُسنَد والمُسنَد اليهِ وانما يدلّك على امكان الثالوث وجوده المشهود عليهِ من العليم الصادق

ومن معترضٍ يوقفنا عند هذا الحدّ قائلاً: انتَ مقرٌّ بعجزك عن اقامة الدليل العقلي على امكان الاسرار من النوع الثالث فعلامَ تحاول بيان لامكان الوحي بها. فنجيب:

اولًا الممكن على ضربين فهو امّا ايجابي او سلبيّ. والاوّل ما تثبّتنا بقوانا الغريزيّة امكانَه وعدمَ تناقض اصوله. والثاني ما كان العقل المجرّد بازائهِ في موقف الريب والتردّد فلا هو متحقّقٌ امكانَه ولا هو متحقّقٌ عدمَه وهو قبل إلمامنا بالوحي موقفُنا جميعاً سيّان كنّا مؤمنين او مُلحدين بازاء الاسرار اللاهوتيّة من الطبقة الاولى وعليهِ فان كنتُ انا لا استطيع بمعزل عن الوحي الدلالةَ على امكانها الايجابيّ فليس

بوسعك انتَ ايضاً ان تتبيَّن فيها خلقاً ايجابياً لأنَّ لكلينا نصيباً واحداً في معرفتها وكلانا لا نستوعبُ اصولها. انا ذو عقل مخلوق محدود وانتَ كذلك ومهما كنتَ اوفر مني ذكاء واثقب ذهناً فالله يفوقك واياي بما لا حدَّ لهُ وما يغربُ عني من دخيلة السرّ لا يحصحص لك. فكلانا اذاً سيَّان وليس لاحدٍ منا قبل الوحي ان يبتَّ بوجود السرّ او عدمه ولا بامكانهِ او استحالته

ثانياً . لحسبك اذاً للاسرار اللاهوتيَّة ذاتِ الطبقة الاولى بالامكان السلبي . وهو ما يتوخَّى اللاهوتيون اثباتهُ لكلّ سرّ بفرده. فانهم كلَّما عثروا في مباحثهم على حقيقةٍ من نوعهِ يباشرون اثبات ورودها في كلام الله المكتوب او المنقول على لسان التقليد. ثمَّ يعمدون الى حجج المعارضين بل غالباً ما يضيفون اليها غيرها مما استنبطوه هم بذاتهم فيبيّنون عدم صلاحيَّتها لاظهار التناقض الصريح في الحقيقة السرّيَّة التي اثبتوها موحاةً من الله

ثالثاً . ويضيقُ بنا المجال لو اردنا استقصاء آثارهم في ابحاثهم هذه عن كلّ سرّ بفردهِ فانها تكاد تستغرقُ كلَّ علم اللاهوت فلندعها اذاً لهم مقتصرين على السرّ اجمالاً شأن الدفاعي (apologiste) ضاربين صفحاً عن قدر مجاوزتهِ حدود المدركات الطبيعيَّة وعمَّا هو فيهِ محجوبٌ عن العقل المجرَّد سراء كان وجوده او ماهيَّته او كلاهما معاً. فيكون حدّ بحثنا في هذا المقام ايضاح القضية المجملة التالية : « انَّ في الله كمالاتٍ تفوق ادراك العقل المجرَّد ». ولنا بقدرها كفاية لأنها اذا ما صحَّت صحَّ ايضاً ما افحم بهِ اللفان اللاتكي متعاقلي عصره وعصرنا اذ قال (١ : « قد غالى في الحماقة من ظنَّ كذباً ما نطقَ بهِ الوحي الالهي بحجَّة انَّ العقل لا يستطيع استقصاءه »

ولدينا على قضيَّتنا المذكورة المبني عليها هذا الاستنتاج بيّنات عقليَّة نقتصر منها على اثنتين :

« البيّنة الاولى) مهما اجهد الانسان فكره واستغرق الاشياء وتقصَّاها تظلّ معارفهُ ضمن دائرة تحدّها قوَّتهُ الفطريَّة وهو السبب في تراوح العالم درجات ليس فقط من الاطفال الى الكهول ولا من الاميين الى العلماء ولكن حتى ما بين الذين

---

١) الخلاصة ضدّ الامم ك ١ ف ٣

صرفوا عمرهم في درس المسألة الواحدة فقد يُصيب هذا من الحقيقة ما لا يصيب ذاك مع انّ تكليهما طبيعةً عقليّةً لا تختلف جوهرًا في الاوّل عنها في الآخر وانما الفرق بينهما يتناول الكميّة والقدر ليس الّا . فكيف ان كان البونُ جوهريًّا وقابلنا فهم البشر بفهم الملاك مثلًا . اليسَ انّ هذا يحلّق في عالم الروحيات ويخوضُ فيما لا نقوى نحن حتى الى الدنوّ اليه . وكيف لو حاولنا ان نسبر عمق علم الله وان نقابل بسموّه وسعته ونوره حقارةَ علمنا وضيقَهُ وظلامهُ . هو العليّ الكامل جامع المحاسن كافةً في ذاته فلا يُحصى فيه عديدها ولا يقدَّر قدرها فهو اذن في ذهنه جامع المعلومات كلّها لا يفوته منها شيء بل علمهُ هو عين جوهره يفوقُ علمنا بما لا نهاية لهُ وكما انّ الروح المحض ادرى منّا بما فيه بقدر ما هو اكملُ منّا فطرةً وجبلةً كذلك الربُّ اعلم بمكنونات ذاته من خلائقه بقدر من يُفضِلُ عليهم طبيعةً وكيانًا اعني بما لا حدّ لهُ . فلا عدد اذًا يُحصى ولا حدّ يُعين للمُدركات الالهيّة المطويّة في جنانه تعالى محجوبةً عن بصائرنا البروزة ظاهرةً لهُ وحدهُ عزّ وجلّ وقد ضلّ من انكر وجود الاسرار

(البينة الثانية) ولا عجب من هذا فانّ الطبيعة الحسيّة عينها استبطنت من الحقائق الغامضة بالوفر اعيت حتى الجهابذة من العلماء . فإن كانت الارضيّات مخفيّة اكثرها علينا فكيف بالسماويات ولا سيما انت عالمٌ اذًا لا تصعد الى الخالق الّا راقين اليه على درجات مخلوقاته

قال هنري پوانكاره (H. Poincarré) في خطاب القاه في المحفل الفرنسويّ (acad. fr^se) : « مهما بعدت وامتدّت فتوحات العلم فلا يزال نطاقهُ محدودًا والسرّ يحيط بهِ من كلّ انحاء تخومه » . وانّ في تقدّم العلوم في عصر النور هذا ما يؤيّد القول المذكور فقد بلغَ الانسانُ في ايّامنا من الاكتشافات النظريّة والعمليّة حدًّا كاد لا يكون وراءهُ مطّلع لولا انّ العقل البشريّ من طبعهِ نقّاف لا تثبّط عزيمتهُ ولا يقنع بما احرز مهما وفر واناف . بل كلّما زادت مقتنياته العلمية يطمح بصره الى غيرها وكلّما تحقّقت لهُ امنيّة يرى الطبيعة حتى اسفلها تملك عنهُ معلوماتٍ هي اوفر من التي حصّلها او سوف يحصّلها . هذا ما يقرّ بهِ العلماء الثقات كلّهم فانّ في اعماق المادّة الواقعة تحت اعينهم حركاتٍ خفيّة وتقلّبات سرّيّة يا بعدَ ما تبدو لهم الرغوة عن صريحها . حلّلوا الاجسام حتى ابسط اجرامها لكن تُرى هل علموا وهل

يعلمون يوماً ما هي مثلاً حقيقة الجاذبيّة التي تجتذب الاوكسيجين والهيدروجين الواحد الى الآخر فتبلغ الرّائعة بالغازين الى حدّ ان ينزعا كلٌّ طبيعتهُ فيتدثّرا طبيعةً جديدة هي المائية. هل علموا وهل يعلمون يوماً بما تقوم الاجسام وأي قوّةٍ تصل بين ذرّاتِ الواحد منها. اصطنعوا النظّارات الحادّة فثقبت بها اعينهم كبدَ السماء فقاسوها وقدّروها ولكن هل ثقبت بصيرةُ عقلهم وهل تثقب يوماً كنهَ الكواكب والسيّارات فيفقهوا علامَ تتجاذب ولا تتلاصق! ثمّ كيف تتضمّن بزرةٌ واحدةٌ كرّاتٍ من الاحياء وما هو موقف الجوهر تحت الاعراض وكيف يتّحد في المركّب الانساني ضدّان جسدٌ وروح فهما جوهرٌ واحدٌ واقنوم واحدٌ. كيف هذا وما ذاك؟ ... لعمري لم ترتفع بعد عن الماديّات الّا ولكلّ خطوةٍ خطوناها على الارض ولكلّ درجةٍ رقيناها في ابراج السماء المنظورة أنشدَ لسانُ حال عيانا:

ثمّ سرٌّ غامضٌ من دونهِ ضُربَت بالسيف اعناق الفحول

أفتنكر التحليلات الكيماوية والتحوّلات الحيولية الجواهر والاعراض واكتشافات الفلكيين ووحدة الهيكل البشري والعالم المادّي اجمع لانّا لم نستقصِ كنههُ؟

اما في عالم الروحيات التي يلمّ بها العقل الصرف فامثال هذه المشاكل وغيرها اشدّ منها صعوبةً اوفر من ان تُحصى. فقد حدّثناك فيما سلف عن ثبوت الوجوب والحرية في الله. وان شئتَ زيادةً فتأمّل المتعاقلين الروحيين الالهيين عن حقيقة الخلق. هم يعتقدون كما ونحن. نشر الكاثوليك وجودَ الروح قائمٍ بذاتهِ متميّزٍ من مبروءاتهِ فيسلّمون اذًا انهُ تعالى اخرجَ كلَّ شيءٍ سواه من العدم ومن ثمّ لا يترددون في القول: إلهٌ روحٌ محضٌ وهو خالقُ الهيولى. ولكن تُرى هل اطّلعوا على كيفية ذلك هل اوضحوا لنا كيف حال بتحوّل الخالق العدمُ وجودًا وكيف أثّر الروح المحض في العالم كيانًا ماديًّا. تالله وعمرُ الحق عقدة لم يظفروا بفكّها ومع ذلك لبثوا معتقدين حقيقتي الخلق والروحانية الباري مع عدم استيعابهم لهما لانّ العقل السليم دلّهم على وجودهما. بل أخذوا باللائمة على الماديين الحلوليين الذين حاولوا فضّ المشكلة بحذفها والابدال منها تناقضاً صريحاً اذ قالوا والعياذ بالله من كفرهم: انا المادّة ازليّة وانا هي الله. ولكن بايّ حقّ ينكرُ مذهبهم هذا المتعاقلون الروحيون؟ باي حكمة ينفرون

من ضلال الحلوليّة ويقعون هم في مثله ؟ اليس في قضية الخلق كما وفي اسرارنا الموحاة ما يفوق ادراكهم ؟ فما الذي بغّض اليهم هذه وحبّب تلك

أفيُجيبون : « ان السرّ الطبيعيّ وان معضلاً يقوم بالحجّة والبرهان . اما السرّ اللاهوتي فلا دليل عليه » . ومتى كنا نحن النصارى نؤمن عن عمى دون ان نعي سبب ايماننا ؟ أوَ ما حسبنا شاهداً على اسرارنا كلام الحق جلّ وعلا ؟ (١

ثم يلاحقون علينا قائلين : « ليس في الاسرار الفلسفية من التناقض الصريح ما نعثر عليه في اسراركم اللاهوتية . تلك مثلاً عقيدتكم في الثالوث جمعتم بها طرفي النقيض لأنّ الله ان كان واحداً فليس ثلاثة وان كان ثلاثةً فليس واحداً وانتم تقولون عنه واحداً ثلاثةً » . اعلمْ انّ في هذا الاعتراض من الافتراء على الوحي الالهيّ ما لا يخفى على ذي عقل سليم ؛ فمتى سمعونا نقول انّ الطبيعةَ الواحدة طبائعُ ثلاثةٌ او الاقانيمَ الثلاثة اقنومٌ واحد ؟ لا لا يا صاح الطبيعة في الله واحدةٌ ومن ثلّثها أشرك وكفر ولسنا نحن من اتباعه . والاقانيم الالهيّة ثلاثةٌ ومَنْ وحّدها شذّ عن الايمان القويم ولسنا نحن من رأيه . ومَنْ وحّد الطبيعة وثلّثها معاً او ثلّث الاقانيم ووحّدها معاً فهو هو الكافر بل هو وحده لا نحن النصارى الذي يضمّ طرفي النقيض . ايماننا هو والحمد لله الاقرار بطبيعةٍ الهيّة واحدة تقومُ بها اقانيم ثلاثة . ألا أمعن النظر في هذه القضية وتشرّب معنى الفاظها فان كنتَ ولا عجب تعيا عن تعليلها وتكييفها فاقلُّ ما تفهمه انّ معنى الاقنوم هو غير معنى الطبيعة . فمن اين لك ان تبيّن في توحيد هذه وتثليث ذاك تناقضاً صريحاً ؟

اما وقد تثبتنا وجود الاسرار فلا حاجة الى الاسهاب في بيان امكان الوحي بها بل نحنُ هنا في غنىً عن برهانٍ جديد يُضاف الى الادلّة التي قدّمناها (ص ٤٤٣—٤٤٥) في امكان الوحي اجمالاً

والحقّ يقال انّ السرّ وان كان لاهوتياً من الطبقة الاولى يسهل على الله اعلامنا اياه لا اقلّ ممّا يسهل عليه إنذارنا ببواقي الحقائق . فمن جهةٍ يُحيط به علمُ العليم كما وبكل شيء . ومن أخرى ليس خروجهُ عن نطاقِ مدركاتنا الطبيعيّة ممّا يضيق له ذوع القدير عن الوحي به الينا . ولا حاجة له تعالى من اجل هذا الغرض ان يُرينا ذاتهُ

(١ راجع ص ٢٤—٢٧

وجهاً لوجهٍ كما يعاينها الابرار والملائكة في السماء. فالعقل البشريّ المجرَّد وان كان لا يستوعبُ في القضية السرّيّة المسنَد والمسنَد اليهِ باجمعهما الَّا انَّهُ على ما مرَّ بك يفهم معنى كليهما فلا يتعذَّر عليهِ اذًا الجمع بينهما بالاسناد. نعم انَّهُ يجزم بموافقتهما بناء على كلام الله لا على سببٍ داخليّ وقف عليهِ بذاتهِ او حصَّلهُ هو ببحثهِ . غير انَّ هذا ليس من مقتضيات الفهم ولا التصديق والتأكيد . ذاك التلميذ مثلًا يفهم معنى القضية الهندسيَّة لمجرَّد شرح الاستاذ لمنطوقها وقبل ان يلمَّ ببرهانها اما معرفة التلميذ اسبابها وروابطها الداخلية فتلي فهمهُ لمنطوق القضية وانما يقف عليها عندما يؤيّد المعلّم الحقيقة الهندسيَّة بدليلها . واما التصديق والتأكيد فيولّدهما في ذهنك الشاهدُ المزكّى دون ان تطّلع بذاتك على الحادث الذي يرويه لك واي شاهدٍ اصدق من الله سواء سردهِ حادثًا جرى او بسطهِ حقيقةً نظريةً

٤ فوائد الوحي

علمتَ ممَّا سبق (ص ١١٨ — ١١٩) ان منطوق الوحي الالهي نوعان فهو اما حقيقةٌ سرّيَّة غامضة واما حقيقةٌ طبيعيَّة لا تخرج عن دائرة مدركات العقل الغريزي

اما الوحي بالحقائق التي من هذا الضرب الاخير فلا نطيل الحديث في منافعهِ لاننا سنفي بالمراد ونزيد اذا ما بيَّنَّا في الجزء التالي ضرورته فضلًا عن فوائده فنكتفي هنا بالاشارة الى بعضها

فاعلم اوَّلًا انَّ الوحي بما لا يفوق ادراك العقل يؤول على الله بمجدٍ عظيم فهو اذًا خليقٌ بهِ تعالى لا يحطّ من عظمته . وذلك لانَّهُ يصرف النظر عن مضمونه وفي حدّ ذاتهِ فعلٌ الهيٌّ يظهر كمالاتهِ تعالى لا أقلّ من باقي مخلوقاتهِ بل بالاحرى يحدو بنا الى تمجيد الناطق بهِ وتسبيحهِ

ثمَّ انَّ الوحي هذا مفيدٌ للانسان ذاته . قل لي يا صاح ماذا لو تركك ابواك وشأنك بعد سنّ الرضاعة والطفوليَّة ووكلا الى الطبيعة وحدها تخريجك وتثقيفك ؟ اجل انَّك لم تكن في تلك الحالة مُتَّ جوعًا وبردًا لانَّك كنتَ درستَ ما انت محاطٌ بهِ من المخلوقات واستخلصتَ منها حاجتك. لكن شتَّان بين حالتك تلك وحالتك الآن . فاين هناك ما افادتك بهِ هنا تربيةُ والديك وخبرتهما قدخاتَ الحياة مدرَّباً محنَّكاً ؟ اينَ هناك ما حصَّلتهُ هنا بتعليم معلّميك من الآداب واللغات والمعارف

فلمّا اردتَ السير في جادّة الدروس الشخصيّة الفيتها ممهدةً ووجدتَ في سابق علمك نبراساً يهديك في تنقيباتك الصراط المستقيم . فلو لم تُذرَّع من غيرك تربيةً او لم تُلقَّن من مخرّجيك علماً لكنتَ في الثمانين من عمرك اجهل واقلّ حنكةً من ابن العشر . وكذا قل عن المعارف الدينيّة الطبيعيّة لو لم يلقّنها الله عبادَه بالوحي لَما كانوا بلغوا الحدّ الذي بلغوه منها . فسبحان الذي افاضَ علينا ضياء بكلامه المُنزَّل فنفضنا به ديناً نيّرًا وعبادةً حارّة

اخيرًا انتَ تعلم انّ اُسَّ الدين حتى الطبيعيّ هو الاقرارُ قولًا وفعلًا بربوبيّة الله فمن مقتضياته الاولى اذًا الطاعة والخضوع ومن منافع الوحي اتساع نطاق تلك الطاعة اذ الوحي يستوجب الايمان فيعدو بالانسان الى الانقياد لربّه ليس فقط ارادةً ولكن عملًا ايضاً

امّا معرفة الاسرار الموحاة فما اشبه من ينكر فائدتها بفقير طلب منك فضّةً فلمّا اعطيتَهُ معها ذهبًا القى به في البحر ظنًّا منهُ انهُ يغنى عنهُ فهو بالفضّةِ وحدها وسرٌّ موسّع . فالفضّة هي القوّة العقليّة التي خوّلنا الله اياها بها نعدّن المخلوقات فنستخرج منها ما اذّخرت لنا من الاشارات الى الكمال الالهي . واما الذهبُ فهو علمٌ تفرّد بهِ الله اذ ليسَ للخلق سبيل الى الوصول اليهِ بقواهم افيرفضونهُ ام لا يعتدّون بهِ اذا منَّ بهِ تعالى عليهم . لعمرُك مهما حوى السرّ الموحى ظلاماً فلا يخلو نورًا فتزدادُ اذًا بهِ ولا شكَّ معارفنا ومن لا يرى انَّ بزيادة المعارف للذهن كمالًا وجدوى . ومهما عيينا عن استيعاب السرّ فاننا لا ندرك وجوده الّا وقد حلّقنا في سماء الروحيّات حتى مقدس اللاهوت فيتجلّى منهُ لاعيننا « ما لم تره عينٌ ولا سمعت بهِ اذنٌ ولا خطر على قلب بشر » . ومن لا يرى انَّ العقل يسمو فينتفع اذًا كلّما سمتْ معرفتُه

فما الرأيُ اذن بقول العقليين انَّ السرّ لا يجدينا الالمامُ بهِ فائدةً بل يحطّ من كرامتنا . اسمع جان جاك روسّو احد زعمائهم يقول (في كتابه الذي عنوانهُ اميل) : « ليس معبودي الهَ الظلام وما أولاني فهمًا كيما يتسنى الانتفاع بهِ فمن اشار عليَّ باخضاع عقلي اهان مُبدعَهُ » . ولِمَ ؟ لِمَ اُسامُ عارًا اذا طأطأتُ الرأس عند قدمَي ربّي والهي فآمنت بمقالهِ مهما خفيت عليَّ روابطه . قال الاب مونسابره يجيب

المذكور روسو : « سبرتُ نفسي وسبرتُ انفسا قريبتها اليَّ المودّة فتعوّدت ان تكشف لي عن ضمائرها سألتُ الاحقابَ وتمثّلتُ من العقول التي سطعت في فلك الحكمة اثقبها فكان اعتقادي انَّ رضى الانسان بما لا يحيط به ادراكه لا يُلحق به ذلًا ولا يثبّط له همّةً بل الاسرار سُنّةٌ تضمن للمرء امناً ولعقله رقيًا » (١

والحقّ يقال انَّ الانسان ان كان من طبعه ميّالًا الى العالم فهو من طبعه ايضاً ميّال الى الكبر فاذا نال من المعارف حظوةً ربّما آل به الكبر الى ان ينسى ابا الانوار الهه فينسب الى ذاته الفضلَ كلَّ الفضل في احراز ما احرز هذا مع انَّ العالم المنظور عينهُ يتقلّب في ليل من الاسرار لا يبدي للمتبصر نورًا الّا تخالهُ ظلامٌ فكيف لو كان كلّهُ نيّرًا لا يطري عنّا حقيقةً ولا يحجب شعاعاً . أما كنّا نُفتن بذكائنا فنسهى عن المعبود الفرد ونتوهّم اننا نحن صانعو العالم لاننا أحطنا باجمعه علماً . ولذا اتانا الله بالدواء وانزل فاضاف الاسرار المرجاة الى الطبيعيّة حتى اذا ما تجلّى لنا بمخلوقاته ووحيه مكتسياً نورهُ ظلاماً هدانا نورهُ الى الالمام بكمالاته وأرغمنا ظلامهُ على الاقرار بعظمته وحقارتنا فنخرّ عند عرشهِ هاتفين : لكَ السجودُ يا ليلًا نيّرًا ويا نورًا مظلماً . والخلاصةُ انَّ ما اودعهُ الله اسراره الموحاة من الصعوبات والمشاكل لم اضنّ ضامن لتواضعنا وخضوعنا لهُ تعالى

على ان هذا الخضوع لا يحطّ من كرامتنا بل ينيلنا مجدًا اثيلًا . اجل طأطأنا الرؤوس خاضعين لكن لمن هو اعظم منّا بما لا نهاية لهُ . زحفنا على الركائب فسجدنا لكنَّ معبودنا هو الربُّ الاله وهو كأنهُ عدلٌ وجودةٌ لا يُضيع لطاعة عبيده اجرًا ولا لايمانهم ثواباً . يكافئهم في الحياة الاخرى اذا ما ضاءت لهم انوار مجده فيعاينوه وجهاً لوجه ويكافئهم ايضاً حتى في هذه الفانية حيث يُفهمهم من الحقّ ما فيهِ لذّتهم وسعادتهم فانَّ عتمة الاسرار يجاذبها النور من كل جانب وفي خلال معضلاتها اودع الوحي الالهيّ حقائق راهنة يا سعدَ من آمن بها ويا سعد سعدهُ اذا ما جعلها ليلًا نهارًا وضوع تأملاته فانَّ ما احرزه منها يُضرم في قلبهِ الشوق الى التشبّع بنيرها فيهبُّ سائرًا على جادّة الوحي مستنيرًا بهِ في كل خطواته تعينهُ حقيقة على ايجاد اخرى

(١ MONSABRÉ: Introduction au Dogme catholique, T. I, 4e Conférence, p. 111.

ولا تتوهمنَّ انَّ الباحثين العلماء وارباب اللاهوت وحدهم يتمتعون بهذه الافراح فانَّ في الاسرار سنَّةً تضمن الرقيَّ حتى لأوضع المؤمنين واصغرهم . وما احسن ما قال ونسابره في هذا المعنى (١ : « قد شبَّه الله ذاته (تثنية الاشتراع ٣٢ : ١١) بملك الطير الذي يُثير فراخهُ ويستنزلها للطيران . هي تسمعُ صراخهُ يدعوها الى قمم الصخور فتنحني من عشها وتتساقط في الفضاء باسطةً اجنحتها ثم تصعدُ الى ابيها فتطير واياه نحو الشمس التي تسقي بنورها احداقها الوقَّادة فتستطيع ان تحظ من العلاء الى رحبات الفضاء . وكذا نحن المؤمنين فانَّ ما فاهَ به كلمةُ الله يرنُّ كصوت النسر فوق الهوَّة التي اختبأت فيها فراخهُ فاذا ما قمنا وراء النسر الالهي وجاوزنا وحيهُ السامي بهتاف الايمان صعدنا صعودًا يزدادُ طلأنا الى الضياء كأنما نأخذ عنا سراج الطبيعة الضئيل . واننا حتى ما بين دجن الامور التي يفوق ادراكنا نشعر بقرب الشمس الابدية ، التي زمانها يومٌ ينتضي زمن الايمان وتحين لنا الرؤيا بلا حجاب في دار الخلود . (لم تتبع)

الحياة الحيوانية على وجه الكرة الارضية

نظرُ الاب اسكندر طوران اليسوعي

انهُ لعمري مشهدٌ يسبي الابصار أن نعاين على وجه أرضنا مظاهر الحياة الحيوانية في شؤونها المختلفة وعاليها المتباينة

قال صاحب المزامير (١٠٣ : ٢٤) : « ما اعجب اسمك يا ربّ في كلّ الارض » فهي آية تصدق في كل اعماله تعالى في ارضنا . عجيبٌ اسمهُ في هذه الافلاك الدائرة في السماء . وفي هذه الكواكب التي تزين القبَّة الزرقاء وكأنها جاريةٌ بنظام ثابت لا تحيد ذرَّةً عن سيرها . عجيبٌ هو في تداول الفصول السنويَّة واختلاف الاقاليم

---

(١) في المجلد ذاته ص ١١٧ و١١٨